16 ème Année No. 760

Lundi — 26 — 1 — 1948

# الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧٦٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٧ — ٢٦ يناير سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

## بلاغة الرســـول

كلفتنى الإذاعة فى احتفالها بذكرى مولد الرسول الكريم أن أكتب كلمة فى بلاغته تذاع فى عشر دقائق ، وهذا تكليف بالمحال ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . فإن عشر دقائق لا تتسع للحديث الموجز عن بلاغة كاتب وسط ، فكيف تتسع للحديث عن بلاغة رسول اصطفاه الله لرسالته ، واصطنعه لوحيه ، وعلمه من علمه ؟

إن بلاغة الرسول من صنع الله ، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقاييسه عن قياسه ؛ فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره . هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ؟ وهل يجد فى نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلالة والروعة ؟ إن البلاغة النبوية هى المثل الأعلى للبلاغة العربية . وإذا كان كلام الله كتابَ البيان المعجز ، فإن كلام الرسول سُنة هذا البيان . وإذا كان البلاغ صفة كل رسول ، فإن البلاغة صفة محمد وحده . تجمعت فيه صلى الله عليه وسلم خصائص البلاغة بالفطرة ، وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة ، فقد ولد فى بنى هاشم ، ونشأ فى قريش ، واسترضع فى بنى سعد ، وتزوج من بنى أسد ، وهاجر إلى بنى عمرو وهم الأوس والخزرج ، وهذه القبائل التى تقلب فيها الرسول هى بالإجماع أخلص القبائل لسانا وأفصحها بيانا وأعذبها لهجة .

والوسيلة الطبيعية لاكتساب اللغة والنطق إنما هى المخالطة والمحاكاة . ثم تولى الله عز وجل تأديبه وتهذيبه ، فكمله برجاحة العقل وسجاحة الخلق وصفاء الحس وقوة الطبع وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومحض السليقة ، ليكون لساناً لكلمته ومظهراً لنوره . ثم أخذ يتصرف فى التجارة على عادة قومه ، فضرب فى الآفاق وتنقل فى الأسواق ، فرأى المناظر الجديدة ، وسمع المناطق المختلفة ، وحصّل المعارف العامة . والأسفار والأخطار والهجرة بعد توفيق الله تفتق الذهن وترفد العقل وتزيد المعرفة . ثم كان يخلى ذرعه من صوارف الدنيا الليالى الطوال فيعتكف فى غار حراء يتعبد ويتأمل ويتجه بروحه الصافى اللطيف إلى الملأ الأعلى . ثم كان من طبعه أن يديم التفكير ويطيل السكوت ، فإذا تكلم اختصر من اللفظ ، واقتصر على الحاجة ، وألقى الكلام بيناً فصلاً يحفظه من جلس إليه ، ولو عده العادّ لأحصاه ، كما قالت السيدة عائشة . كل أولئك قد مكن للرسول من ناصية البلاغة ، فأسلست له الألفاظ ، وأسمحت له المعانى ، فلم يند فى لسانه لفظ ، ولم يضطرب فى أسلوبه عبارة ، ولم يعزب عن علمه لغة ، ولم ينب عن خاطره فكرة ؛ حتى كان كلامه كما قال الجاحظ « هو الكلامَ الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة وتنزه عن التكلف . استعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، وتنزه عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشُد بالتأييد ويُسر بالتوفيق ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل

معنى ، ولا اجزل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح من معناه ، ولا أبين من فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم » لذلك قال وقوله الحق : « أنا أفصح العرب ، بيْد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر . وقد قال له صاحبه أبو بكر : لقد طفت فى بلاد العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . ومن أولى بذلك كله ممن يخاطبه الله تعالى بقوله : وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ؟

إن أخص ما يميز الأسلوب النبوى الأصالة والإيجاز . فالأصالة وهى خصوصية اللفظ وطرافة العبارة تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب البيانية ، ويرتجله من الأوضاع التركيبية ، ويضعه من الألفاظ الاصطلاحية ، كقوله عليه الصلاة والسلام : مات حتف أنفه ، والآن حمى الوطيس ، وهدنة على دخن ؛ وقوله لحادى النساء : رويدك ! رفقاً بالقوارير . وقوله فى يوم بدر : هذا يوم له مابعده . ولتمكن الأصالة فيه كان يقتضب ويتجوز ويشتق ويبتدع ، فيصيح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ، وسراً من أسرار اللسان ، يزيد فى ميراث اللغة ، ويرفع من قدر الأدب .

والإيجاز وهو تأدية المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة غالب على أسلوب الرسول ، لأن الإيجاز قوة فى التعبير ، وامتلاء فى اللفظ ، وشدة فى التماسك ؛ وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح وقوة الشعور وقوة الذهن ، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون فى الرسول ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه وأحاديثه حتى عُدَّت من خصائصه .

على أن الرسول عليه السلام كان يطيل إذا اقتضت الحال ذلك . فقد روى أبو سعيد الخُدرى أنه خطب بعد العصر فقال : « ألا إن الدنيا خضرة حلوة ! ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . اتقوا الدنيا ، واتقوا النساء . ألا لا يمنعن رجلا مخافةُ الناس أن يقول الحق إذا علمه » . قال أبو سعيد ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف ، فقال : « إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى » .

والمأثور من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم خطب وكتب وأحاديث ، وكلها تتسم بالإلهام والإبداع والعبقرية ، وتمتاز بالجزالة والجلالة والسبك . وهو فى بعضها يستعمل الغريب ويلتزم السجع تبعاً لما جرى على ألسنة الوافدين عليه من مختلف القبائل . من ذلك حديثه مع طهفة بن أبى زهير النهدى ، ومع لقيط بن عامر بن المنتفق ، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره .

وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار . وتلك ميزة الرسل من قبل ، لأن المرسلين فى مقام المعلمين ، وأنجع مايكون التعليم إذا كان على طريقة التمثيل والمحاورة ، كقوله عليه السلام : « إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . المؤمن هين لَيِّن كالجمل الأنف إن قيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة استناخ . أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . لو توكلتم على الله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً . إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . إياكم وخضراء الدمن : المرأة الحسناء فى المنبت السوء . المرأة كالضلع إن رُمت قوامها كسرتها . الناس كلهم سواسية كأسنان المشط . جنة الرجل داره . ومن روائع تشبيهاته عليه السلام قوله : إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع . فنقر رجل منهم موضعه بفأس ؛ فقالوا له ما تصنع ؟ قال هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا .

والسفينة التى ضربها الرسول مثلا هى اليوم دنيا الإسلام والعروبة ، تقسمها الإخوان والبنون فى عهود الضعف والانحلال فصار لكل منهم وطن ودولة ، ولكن هذه الأوطان المتعددة تجمعها دنيا واحدة ، كما تجمع السفينة مواضع الركاب ؛ فكل وطن وإن استقل بنفسه مرتبط فى قوام حياته بغيره ؛ فهو حرى ألا يوبق بحريته الوطن الجمع ؛ والوطن الجمع حرى ألا يُغرق فى عبابه الوطن المفرد . وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم بما آتاه الله من ألمعية الذهن وإشراق الروح كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، فضرب هذا المثل لجامعة الدول العربية لعلها تتذكر فتتدبر . وهذه هى بلاغة الإلهام والفيض ، تكشف الحجب بنور الله ، وتخترق الغيوب بنفاذ البصيرة ، وترسل الكلمة من فيض الخاطر وعفو البديهة فتكون حكمة الحاضر ونبوءة المستقبل !

صلى الله عليك يا رسول التوحيد والوحدة ، ونبى الحرية والديمقراطية ، وإمام السياسة والتشريع ، وأمير الفصاحة والبلاغة ، وداعية السلام والوئام والمحبة !

محمد سعيد العريان